أمتنا الاسلامية
بين التفرق الممنوع والاختلاف المشروع
دراسة في ضوء القرآن والسنة

بقلم

أ.د. يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

وعميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الرابع - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

١ - الاتحاد والترابط فريضة دينية

يجب أن يكون هدف الداعين إلى الإسلام والعاملين له : الاتحاد والألفة ، واجتماع القلوب ، والتئام الصفوف ، والبعد عن الاختلاف والفرقة ، وكل ما يمزق الجماعة أو يفرق الكلمة ، من العداوة الظاهرة ، أو البغضاء الباطنة ، ويؤدي إلى فساد ذات البين ، مما يوهن دين الأمة ودنياها جميعا .

فلا يوجد دين دعا إلى الأخوة التي تتجسد في الاتحاد والتضامن ، والتساند والتآلف ، والتعاون والتكاتف ، وحذر من التفرق والاختلاف والتعادي ، مثل الإسلام في قرآنه وسنته .

من توجيهات القرآن :

يقول الله تعالى في سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم . يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » . (سورة آل عمران : ١٠٠ : ١٠٧)

نقل الحافظ السيوطي في (الدر المنثور) في سبب نزول هذه الآيات جملة آثار عن بعض الصحابة والتابعين ، أكثرها تفصيلاً : ما أخرجه ابن إسحق وابن

قيس - وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا معه من يهود ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكّرهم يوم بعاث ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهم لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة ! وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا . السلاح السلاح ! موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها في الجاهلية . فبلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : (يامعشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ أبعد إذ هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟!) فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم لهم ، فألقوا السلاح ، وبكوا ، وعانق الرجال بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس ، وما صنع : « قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون » إلى قوله : « وما الله بغافل عما تعملون» وأنزل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما ، من قومهما

الذين صنعوا ما صنعوا : «يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» إلى قوله : «وأولئك لهم عذاب عظيم»[1] .

والآيات الكريمة دعوة قوية إلى توحيد الكلمة ، واجتماع الصف المسلم على الإسلام ، وقد تضمنت :

١ - التحذير من دسائس غير المسلمين ، ومن طاعتهم فيما يوسوسون به ، فليس وراءها إلا الارتداد على الأعقاب ، والكفر بعد الإيمان .

٢ - التعبير عن الاتحاد بالإيمان ، وعن التفرق بالكفر ، فإن معنى «يردوكم بعد إيمانكم كافرين» أي بعد وحدتكم وأخوتكم متفرقين متعادين كما تدل أسباب النزول .

٣ - أن الاعتصام بحبل الله من الجميع هو أساس الوحدة والتجمع بين المسلمين ، وحبل الله هو الإسلام ، والقرآن .

٤ - التذكير بنعمة الأخوة الإيمانية بعد عداوات الجاهلية وإحنها وحروبها ، وهي أعظم النعم بعد الإيمان «وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفتَ بين قلوبهم ، ولكن الله ألَّفَ بينهم ، إنه عزيز حكيم» (سورة الأنفال : ٦٣) .

٥ - لا يجمع الأمة أمر مثل أن يكون لها هدف كبير تعيش له ، ورسالة عليا تعمل من أجلها ، وليس هناك هدف أو رسالة للأمة الإسلامية أكبر ولا أرفع من الدعوة إلى الخير الذي جاء به الإسلام ، وهذا سر قوله تعالى في هذا السياق «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» .

٦ - التاريخ سجل العبر ، والواعظ الصامت للبشر ، وقد سجل التاريخ أن من قبلنا تفرقوا واختلفوا في الدين فهلكوا ، ولم يكن لهم عذر ، لأنهم اختلفوا بعد ما جاءهم العلم ، وجاءتهم البينات من ربهم ، ومن هنا كان

---

[1] الدار المنثور للسيوطي جـ٢ ص٥٧ ، ٥٨ .

التحذير الألهي : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» .

هذا وقد أكد القرآن أن المسلمين - وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وطبقاتهم - أمة واحدة ، وهم الأمة الوسط الذين جعلهم الله «شهداء على الناس» (سورة البقرة : ١٤٣) وهم كما وصفهم القرآن «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (سورة آل عمران : ١١٠) .

وأعلن القرآن أن الأخوة الواشجة هي الرباط المقدس بين جماعة المسلمين وهي العنوان المعبر عن حقيقة الإيمان «إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (سورة الحجرات : ١٠) .

وجاءت الآيات بعد هذه الآية تقيم سياجاً من الآداب والفضائل الأخلاقية يحمي الأخوة مما يشوهها ويؤذيها ، من السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب ، وسوء الظن ، والتجسس ، والغيبة ، «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعد الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم» (سورة الحجرات : ١١ ، ١٢) .

وحذر القرآن من التفرق أيما تحذير . ومن ذلك قوله تعالى : «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض» (سورة الأنعام : ٦٥) .

فجعل تفريق الأمة شيعاً ، يذيق بعضها بأس بعض ، من أنواع العقوبات القدرية التي ينزلها الله بالناس إذا انحرفوا عن طريقه ، ولم يعتبروا بآياته ، وقرنها القرآن بالرجم ينزل من فوقهم ، كالذي نزل بقوم لوط ، أو بالخسف يقع من تحت أرجلهم ، كالذي وقع لقارون .

وقال تعالى : «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون» (سورة الأنعام : ١٥٩) .

جاء عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في دينهم .

وجاء عن غيره أنهم أهل البدع ، وأهل الشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة .

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد ، لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه «وكانوا شيعا» أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى ، قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما هم فيه . وهذه الآية كقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (سورة الشورى : ١٣)⁽١⁾أهـ .

وذم القرآن الذين تفرقوا واختلفوا في الدين من أهل الكتاب في آيات كثيرة سيمر علينا بعضها في موضعه من هذا البحث .

من توجيهات السنة والسيرة :

أما السنة فقد قررت وأكدت وفصلت ما جاء به القرآن الكريم من الدعوة إلى الاتحاد والائتلاف ، والتحذير من التفرق والاختلاف .

فقد دعت السنة إلى الجماعة والوحدة ، ونفرت من الشذوذ والفرقة ، ودعت إلى الأخوة والمحبة ، وزجرت عن العداوة والبغضاء .

والأحاديث في هذا كثيرة وفيرة . .

روى الترمذي عن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية (اسم موضع) فقال : يأيها الناس ، إني قمت فيكم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٩٦ ط. الحلبي .

فقال : أوصيكم بأصحابي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . . عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة ، فليلزم الجماعة(١) .

وروي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يد الله مع الجماعة»(٢) .

وروي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله لا يجمع أمتي - أو قال : أمة محمد صلى الله عليه وسلم - على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار»(٣) .

وفي الصحيحين : أن : «من فارق الجماعة شبرا فمات ، فميتته جاهلية»(٤) .

وأكدت السنة الدعوة إلى الأخوة والوحدة بين المسلمين في مواقف كثيرة وبأساليب شتى «المسلم أخو المسلم ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»(٥) .

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٦) .

«والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦) وقال : حسن صحيح غريب . . قال : وقد روي هذا من غير وجه عن عمر . ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ١١٤) .

(٢) الترمذي (٢١٦٧) واستغربه . ورواه الحاكم (١/ ١١٥) وابن أبي عاصم عن أسامة بن شريك ، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٠٦٥) ويشهد له ما قبله ، كما يقوى بكثرة طرقه .

(٣) الترمذي (٢١٦٨) واستغربه كذلك من هذا الوجه . ورواه الحاكم بنحو هذا اللفظ بلفظ «لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبدا . وقال : «يد الله على الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار» ولم يصححه الحاكم ولا الذهبي (١/ ١١٥) .

(٤) متفق عليه عن ابن عباس .

(٥) متفق عليه عن ابن عمر .

(٦) متفق عليه عن أنس كما في اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .

ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم»(١) .

«المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم»(٢) .

ولقد حذرت السنة النبوية أبلغ التحذير وأشده من التباغض والتهاجر والتشاحن ، وفساد ذات البين .

فمن حديث أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وسلم «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»(٣) .

ومن حديث أبي أيوب الأنصاري : «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان ، فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام»(٤) .

ومن حديث أبي هريرة : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً»(٥) .

ومن حديث أبي هريرة أيضا : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه»(٦) .

ومن حديثه كذلك : «تفتح أبواب الجنة كل يوم الاثنين ويوم الخميس ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً ، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء (أي

---

(١) رواه مسلم في الإيمان عن أبي هريرة (الحديث ٩٣) .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو ، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (٦٧٠٦) .

(٣) رواه البخاري في الأدب ومسلم في البر . انظر : اللؤلؤ والمرجان . الحديث رقم (١٦٥٨) .

(٤) رواه البخاري في الأدب ومسلم في البر ، اللؤلؤ والمرجان (١٦٥٩) .

(٥) المصدر المذكور . الحديث (١٦٦٠) .

(٦) رواه مسلم في البر برقم (٢٥٦٤) وهو من أحاديث الأربعين النووية .

عداوة) فيقال : أنظروا (أي أخروا) هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا»(١) .

ومن حديث أبي الدرداء : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : صلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(٢) . قال الترمذي : «ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : هي الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين» .

ومن حديث أبي هريرة : «إياكم وسوء ذات البين ، فإنها الحالقة»(٣) .

ومن حديث مولى الزبير عن الزبير : «دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»(٤) .

ومن حديث ابن عباس : «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : رجل أم قوما وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها ساخط عليها ، وأخوان متصارمان » أي متقاطعان(٥) .

ومن حديث أبي خراش الأسلمي : «من هجر أخاه سنة ، فهو كسفك دمه»(٦) .

ومن حديث جابر بن عبد الله : «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم»(٧) .

---

(١) المصدر السابق - الحديث (٢٥٦٥) .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة وصححه (٢٥١١) ورواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩) .

(٣) رواه الترمذي وقال : صحيح غريب (٢٥١٠) .

(٤) الترمذي (٢٥١٢) وبين أن بعض الرواه لم يذكروا فيه عن الزبير .

(٥) رواه ابن ماجة (٩٧١) ونقل محققه عن الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٦) رواه أبو داود في الأدب (٤٥١٥) وفيه عن أبي خراش السلمي ، والجمهور على أنه أسلمي ، كما في (تهذيب التهذيب) ترجمة حدرد بن أبي حدرد .

(٧) رواه مسلم في صفات المنافقين ، الحديث (٢٨١٢) .

من كراهية الاسلام للفرقة :

ومن كراهية الإسلام للفرقة ، والاختلاف نجد الرسول الكريم ، يأمر بالانصراف عن قراءة القرآن إذا خشي من ورائها أن تؤدي إلى الاختلاف .

فقد روي الشيخان عن جندب بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»(١). أي تفرقوا وانصرفوا لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر .

فرغم ما هو معلوم لكل مسلم من فضل قراءة القرآن ، وأن لقارئه بكل حرف عشر حسنات ، لم يأذن بقراءته إذا أدت إلى التنازع والاختلاف ، سواء كان الاختلاف في القراءة وكيفية الأداء ، فأمروا أن يتفرقوا عند الاختلاف ، ويستمر كل منهم على قراءته ، كما ثبت فيما وقع بين عمر وهشام ، وبين ابن مسعود وبعض الصحابة وقال : كلاكما محسن .

أم كان الاختلاف في فهم معانيه ، فالمعنى : اقرءوا والزموا الائتلاف على ما دل عليه ، وقاد إليه ، فإذا وقع الاختلاف ، أو عرض عارض شبهة يقتضي المنازعة الداعية إلبى الافتراق ، فاتركوا القراءة وتمسكوا بالمحكم الموجب للألفة ، واعرضوا عن المتشابه المؤدي إلى الفرقة ، وهو كقوله في الحديث الآخر : «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم»(٢) .

وفي هذه الأحاديث - كما قال الحافظ ابن حجر - الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف ، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق(٣) .

لماذا الحرص على الوحدة والترابط ؟

لماذا حرص الإسلام كل هذا الحرص على الاتحاد والترابط ، ولماذا حذر كل هذا التحذير من التفرق ، والتشاحن ؟

---

(١) متفق عليه كما في (اللؤلؤ والمرجان - فيما تفق عليه الشيخان - حديث رقم (١٧٠٦) .

(٢) متفق عليه كما في المصدر السابق - حديث (١٧٠٥) .

(٣) فتح الباري جـ٩ ص١٠٢ ، ١٠٣ ط، دار الفكر .

الواقع أن وراء الاتحاد منافع وآثارا في حياة الأمة لا تخفى على ذي لب :

(أ) فالاتحاد يقوي الضعفاء ، ويزيد الأقوياء قوة ، على قوتهم ، فاللبنة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها ، وآلاف اللبنات المتفرقة والمتناثرة ضعيفة بتناثرها وإن بلغت الملايين ، ولكنها في الجدار قوة لا يسهل تحطيمها ؛ لأنها باتحادها مع اللبنات الأخرى ، في تماسك ونظام ، أصبحت قوة أي قوة ، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف بقوله : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه(١) .

ونبهت عليه الآية الكريمة ، حيث يقول تعالى : «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» (سورة الصف : ٤) .

والقصة المشهورة التي علمها الأب لأبنائه تؤكد هذا المعنى ، إذ لم يستطع أي واحد منهم ، أن يكسر مجموعة العصيّ المتضامة ، على حين أمكن بيسر كسر كل منها على حدة ، وقال في ذلك :

كونوا جميعا يابني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحاد !
تأبى العصيّ إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقن تكسرت أفرادا !

(ب) والاتحاد كذلك عصمة من الهلكة ، فالفرد وحدة يمكن أن يضيع ، ويمكن أن يسقط ، ويفترسه شياطين الإنس والجن ، ولكنه في الجماعة محمي بها كالشاة في وسط القطيع ، لا يجترىء الذئب أن يهجم عليها ، فهي محمية بالقطيع كله . إنما يلتهمها الذئب حين تشرد عن جماعتها وتنفرد بنفسها ، فيجد فيها ضالته ، ويعمل فيها أنيابه ، ويأكلها فريسة سهلة .

وفي هذا جاء الحديث : «عليكم بالجماعة ، فإن يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ في النار» .

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري .

«إن الشيطان ذئب الإنسان ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» .

«عليكم بالجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الإثنين أبعد» .

ومما له دلالته القوية في الحفاظ على وحدة الجماعة ما ذكرته في كتابي (بينات الحل الإسلامي) مما سجله القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام حينما ذهب لمناجاة ربه ، استجابة لوعد الله تعالى ، الذي واعده ثلاثين ليلة ، ثم أتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وخلف في قومه أخاه وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام .

وفي غيبة موسى فتن قومه بعبادة العجل الذي صنعه لهم السامري ، فلما رجع موسى إلى قومه ، فوجىء بهذا الانحراف الكبير الذي يتصل بجوهر العقيدة التي بعث بها موسى ، وبعث بها كل الرسل من قبله ومن بعده .

وهنا غضب موسى ، وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وقال : «ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن ، أفعصيت أمري» (سورة طه : ٩٢ ، ٩٣) .

فكان جواب هارون كما ذكر القرآن : «قال : يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول ، فرقت بين بني اسرائيل ، ولم ترقب قولي» (سور طه : ٩٤) .

وفي هذا الجواب نرى أن نبي الله هارون اعتذر لأخيه بهذه الجملة : «إني خشيت أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ، ولم ترقب قولي» .

ومعنى هذا أنه سكت على ارتكاب الشرك الأكبر ، وعبادة العجل ، الذي فتنهم به السامري ، حفاظا على وحدة الجماعة ، وخشية من تفرقها ، وهي - لا شك - خشية موقوته بمدة غياب موسى ، حتى إذا عاد تفاهم الأخوان الرسولان في كيفية مواجهة الأزمة .

٢ - تفرق الأمة ليس قدرا لازما ولا دائما

ويقول بعض الناس : إن تفرق الأمة أمر لازم فرضه القدر وأخبر به الشرع فلا مناص منه ، ولا مهرب عنه .

يدل ذلك :

١ - ما جاء من أحاديث تكاثرت واستفاضت تنبيء بأن الله تعالى جعل بأس هذه الأمة بينها .

٢ - حديث افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة .

معنى جعل بأس هذه الأمة بينها :

أما أحاديث جعل هذه الأمة بأسها بينها ، وتسليط بعضها على بعض ، فهي أحاديث صحيحة مستفيضة رويت عن عدد من الصحابة ، منهم سعد بن أبي وقاص ، وثوبان ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وحذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وخباب بن الأرت ، وشداد بن أوس ، وخالد الخزاعي ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبو هريرة .

وقد ذكر هذه الأحاديث الحافظ بن كثير في تفسيره لقوله تعالى : «قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» (سورة الأنعام : ٦٥) .

وأكتفي من هذه الأحاديث بثلاثة :

ما رواه أحمد ومسلم عن سعد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم : سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ، ومنعني واحدة ، سألت ربي ألا

يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»(١) .

وروى الأمام أحمد وغيره عن خباب بن الأرت : وافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة صلاها كلها ، حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ، فقلت : يارسول الله ، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل إنها صلاة رغَب ورهَب ! سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألت ربي عز وجل ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا ، فأعطانيها ، وسألت ربي عز وجل ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا ، فأعطانيها ، وسألت ربي عز وجل ألا يلبسنا شيعا ، فمنعنيها»(١) .

وروى مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) : «إن الله زوي لى الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها . . » الحديث .

والأحـاديث المذكورة - وما في معناها مما لم نذكره - واضحة الدلالة على المراد ، وهو أن الله تعالى ضمن لنبيه صلى الله عليه وسلم في أمته أمرين كرامة له عليه الصلاة والسلام ، وأجاب دعوته فيهما :

الأول : ألا يهلكها بما أهلك به الأمم السابقة بمثل الغرق الذي أهلك الله به قوم نوح ، أو فرعون وجنوده ، أو بالسنين أي المجاعات الماحقة التي تهلك بها الأمة كافة ، أو بغير ذلك من الرجم من فوقهم أو الخسف من تحت أرجلهم .

الثاني : ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ، يسلط عليهم بحيث يستبيح بيضتهم ، ويستأصل شأفتهم ، ويقضي على وجودهم .

ولكن أمرا آخر طلبه النبي صلى الله عليه وسلم من ربه ، فلم يجب إليه ولم

---

(١) رواه مسلم في الفتن (الحديث : ٢٨٨٩) .

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية ٦٥ من سورة الأنعام (جـ٢ / ١٤١) نقلا عن المسند ، قال : ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه والترمذي في الفتن وقال : حسن صحيح .

(٢) رواه مسلم في الفتن (الحديث ٢٨٨٩) .

يضمنه له ، وهو : ألا يلبس هذه الأمة شيعا ، ولا يجعل بأسها بينها ، فلم يجب الله سبحانه لرسوله الكريم هذا السؤال ، وتركه للسنن الكونية والاجتماعية ، ولشبكة الأسباب والمسببات .

فالأمة هنا هي مالكة أمر نفسها ، لم يجبرها الله على شيء ، ولم يخصها - في هذا المجال - بشيء ، فإذا هي استجابت لأمر ربها ، وتوجيه نبيها ، ودعوة كتابها ، ووحدت كلمتها ، وجمعت صفها ، عزت وسادت وانتصرت على عدو الله وعدوها ، وحققت ما يرجوه الإسلام منها ، وإن هي استجابت لدعوات الشياطين ، وأهواء الأنفس ، تفرقت بها السبل ، وسلط عليها أعداؤها ، من خلال تفرقها ، وتمزق صفوفها ، كما أشار إلى ذلك الحديث « حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضاً» .

والحديث لا يعني بحال أن يكون تفرق الأمة وتسلط بعضها على بعض أمرا لازما ودائما وعاما ، يشمل كل الأزمنة ، وكل الأمكنة ، وكل الأحوال إلى يوم القيامة .

وإلا لم يكن هناك معنى لقوله تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» (آل عمران : ١٠٣) .

ولا لقوله عز وجل «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» (آل عمران : ١٠٥) .

ولا لقوله سبحانه : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (سورة الأنفال : ٤٦) .

ولا لقوله جل شأنه : «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» (سورة الصف : ٤) .

ولا لقوله عز من قائل : « ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » (سورة الروم : ٣١ ، ٣٢) .

ولا لقوله : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (سورة المؤمنين : ٥٢) .

ولا لقوله صلى الله عليه وسلم : «لا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» .

ولا لقوله عليه الصلاة والسلام : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» .

وقوله : «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» .

وقوله : «لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً» .

إلى غير ذلك من نصوص القرآن والحديث التي أمرت بالاتحاد والائتلاف ، ونهت عن التفرق والاختلاف والتي أوجبت على المسلمين أن يكون لهم إمام واحد ، وألا يبايعوا لخليفتين في وقت واحد ، وأن يقاوموا من يريد أن يفرق كلمتهم وأمرهم جميع . . الخ .

ولو كان التفرق قدرا مفروضا على الأمة بصورة عامة ودائمة لكانت هذه الأوامر والنواهي عبثا ، لأنها تأمر بما لا يمكن وقوعه ، وتنهى عما يستحيل اجتنابه .

والأحاديث التي أخبرت بأن الله لم يسلط على هذه الأمة عدوا غيرها يقوض بنيانها ، ويأتي عليها من القواعد ، وإنما تركها لأنفسها ، وجعل بأسها بينها - لم تخبر بأن هذا أمر واقع في كل بقعة من أرض الإسلام ، وفي كل عصر من العصور .

إنما هو داء وبيل تصاب به الأمة كلما تهيأت أسبابه ، ولم تتحصن منه بما ينبغي ، كما يصاب الفرد بالمرض إذا أهمل الوقاية ، أو قصر في العلاج .

وقد يقع في مكان دون مكان ، وفي زمان دون زمان ، وبين قوم معينين دون غيرهم ، ويكفي مثل هذا ليصدق الخبر النبوي .

وقد جاء في بعض الأحاديث : أن جعل بأس الأمة بينها يكون عقوبة من الله لها على انحرافها عن شرعه وكتابه ، ولا سيما أئمتها ورؤساؤها ، كما جاء في

حديث ابن عمر مرفوعاً : «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»(١) .

على أن ما أنذرت به الأحاديث المذكورة من جعل بأس الأمة بينها يمكن أن يفسر بما وقع بالفعل في بعض الأزمنة السابقة ، كما وقع في عهد الصحابة أنفسهم من الفتن ، وما وقع في عهود من بعدهم ، في العصر الأموي ثم في العصر العباسي ، مما مهد لدخول الصليبيين من الغرب ، والتتار من الشرق ، إلى دار الإسلام ، والسيطرة على أجزاء منها مدة من الزمان .

وقد بشرت أحاديث أخرى بأن الإسلام ستعلو كلمته ، وأنه سيدخل أوربة مرة أخرى ، بعد أن طرد منها مرتين ، وأنه سيفتح (رومية) كما فتح من قبل (القسطنطينية) وأنه لا يبقى بيت مدر أو وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، الذي سيبلغ ما بلغ الليل والنهار ، ومعلوم أن هذا كله لا يمكن أن يتم والأمة ممزقة يضرب بعضها رقاب بعض . إنما يتم ذلك حين تتوحد الكلمة على الإسلام ، وتمضي الأمة تحت راية الإيمان .

حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة :

أما حديث افتراق الأمة إلى فرق فوق السبعين كلها في النار إلا واحدة ، ففيه كلام كثير في ثبوته وفي دلالته .

أ - فأول ما ينبغي أن يعلم هنا أن الحديث لم يرد في أي من الصحيحين ، برغم أهمية موضوعه ، دلالة على أنه لم يصح على شرط واحد منهما .

وما يقال من أنهما لم يستوعبا الصحيح ، فهذا مسلّم ، ولكنهما حرصا ألا يدعا بابا مهما من أبواب العلم إلا ورويا فيه شيئا ولو حديثا واحدا .

ب - إن بعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة ، وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط . وهذا هو حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفيه يقول :-

«افترقت اليهود على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى

---

(١) رواه ابن ماجه والبزاز والحاكم والبيهقي .

على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»(١) .

والحـديث وإن قال فيه الترمذي : حسن صحيح ، وصححه ابن حبان والحـاكم - مداره على محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي ، ومن قرأ ترجمته في (تهذيب التهذيب) ، علم أن الرجل متكلم فيه من قبل حفظه ، وأن أحدا لم يوثقه بإطلاق، وكل ما ذكروه أنهم رجحوه على من هو أضعف منه . ولهذا لم يزد الحافظ في التقريب على أن قال : صدوق له أوهام . والصدق وحده في هذا المقام لا يكفي ما لم ينضم إليه الضبط ، فكيف إذا كان معه أوهام ؟!

ومعلوم أن الترمذي وابن حبان والحاكم من المتساهلين في التصحيح ، وقد وصف الحاكم بأنه واسع الخطو في شرط التصحيح .

وهو هنا صحح الحديث على شرط مسلم ، باعتبار أن محمد بن عمرو احتج به مسلم ، ورده الذهبي بأنه لم يحتج به منفرداً ، بل بانضمامه إلى غيره (١ / ٦) .

على أن هذا الحديث من رواية أبي هريرة ليس فيه زيادة : أن «الفرق كلها في النار إلا واحدة» وهي التي تدور حولها المعركة .

وقد رُوي الحديث بهذه الزيادة من طريق عدد من الصحابة : عبد الله بن عمـرو ، ومعاوية ، وعوف بن مالك ، وأنس ، وكلها ضعيفة الإسناد ، وإنما قووها بانضمام بعضها إلى بعض .

---

(١) أبو داود في السنة برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الفتن مختصرا (٣٩٩١) وابن حبان ، كما في الموارد (١٨٣٤) والحاكم (١ / ٦) وصححه على شرط مسلم ورده الذهبي .

(١) في موضع آخر (١ / ١٢٨) أقره الذهبي ، وهذا يتكرر كثيرا في تلخيصه ، فلعله غفل عما ذكره من قبل ، أو اكتفى به ! ومن المعلوم أن البخاري أيضاً روى لمحمد بن عمرو ولكن مقرونا بغيره معلقا ، كما في مقدمة (الفتح) فكان يمكن للحاكم على طريقته أن يقول : على شرطهما !

والذي أراه أن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها ، فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه ، كما يبدو ذلك في كتب التخريج ، والعلل ، وغيرها ! وإنما يؤخذ بها فيما لا معارض له ، ولا إشكال في معناه .

وهنا إشكال أي إشكال في الحكم بافتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من ناحية ، وبأن هذه الفرق كلها هالكة في النار إلا واحدة منها . وهو يفتح بابا لأن تدعي كل فرقة أنها الناجية ، وأن غيرها هو الهالك ، وفي هذا ما فيه من تمزيق للأمة وطعن بعضها في بعض ، مما يضعفها جميعاً ، ويقوي عدوها عليها ، ويغريه بها .

ولهذا طعن العلامة ابن الوزير في الحديث عامة ، وفي هذه الزيادة خاصة ، لما تؤدي إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض ، بل تكفيرها بعضها لبعض .

قال رحمه الله في (العواصم) وهو يتحدث عن فضل هذه الأمة ، والحذر من التورط في تكفير أحد منها ، قال : (وإياك والاغترار بـ «كلها هالكة إلا واحدة» فإنها زيادة فاسدة ، غير صحيحة القاعدة ، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة) .

قال : وعن ابن حزم : أنها موضوعة ، غير موقوفة ، ولا مرفوعة ، وكذلك جميع ما ورد في ذم القدرية والمرجئة والأشعرية ، فإنها أحاديث ضعيفة غير قوية(١) .

---

(١) العواصم والقواصم جـ١/١٨٦ .

جـ - أن من العلماء قديماً وحديثاً من رد الحديث : من ناحية سنده ، ومنهم من رده من ناحية متنه ومعناه(١) .

فهذا أبو محمد ابن حزم ، يرد على من يكفر الآخرين بسبب الخلاف في الاعتقاديات بأشياء يوردونها .

وذكر من هذه الأشياء التي يحتجون بها في التكفير حديثين يعزونهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هما :

١ - « القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة » .

٢ - « تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة ، كلها في النار حاشا واحدة ، فهي في الجنة » .

قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به(٢) ؟ .

---

(١) وفي متن هذا الحديث إشكال من حيث أنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس ، ووصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس ، أسوأ من اليهود ، والنصارى في مجال التفرقة والاختلاف ، حتى أنهم زادوا في فرقهم على كل من اليهود والنصارى .

هذا مع أن القـرآن قال في شأن اليهود «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» (سورة المائدة : ٦٤) .

وقال في شأن النصارى : «ومن الذين قالوا : إنا نصارى ، أخذناهم ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم بما كانوا يصنعون» (سورة المائدة : ١٤) .

ولم يجيء في القرآن عن أمة الإسلام شيء يشبه هذا ، بل فيه التحذير أن يتفرقوا ويختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم .

ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها - إلا واحدة - بأنها في النار ، هذا مع ما جاء في فضل هذه الأمة ، وأنها أمة مرحومة وأنها تمثل ثلث أهل الجنة ، أو نصف أهل الجنة .

على أن الخبر عن اليهود والنصارى بأنهم افترقوا إلى هذه الفرق التي نيفت على السبعين غير معروف في تاريخ الملتين ، وخصوصا عند اليهود . فلا يعرف أن فرقهم بلغت هذا المبلغ من العدد .

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ، تحقيق ، د. محمد ابراهيم نصر و د. عبد الرحمن عميره ، جـ٣ ص٢٩٢ ، ط. دار عكاظ ، جده . وقد ذكر الشيخ الألباني في الصحيحة) رقم (٢٠٤) أنه بحث عن كلام ابن حزم هذا في (الفصل) فلم يعثر عليه ، وهو ذا واضح صريح .

وهـذا الإمـام اليمني المجتهـد ، ناصر السنـة ، الـذي جمع بين المعقول والمنقـول ، محمـد بن إبـراهيم الـوزير (ت٨٤٠هـ) يقول في كتابه (العواصم والقواصم) أثناء سرده للأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه ، فكان منها (الحديث الثامن) : حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا فرقة واحدة ، قال : وفي سنده ناصبي ، فلم يصح عنه ، وروى الترمذي مثله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال : حديث غريب . ذكره في الإيمان من طريق الأفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن يزيد عنه .

وروى ابن ماجه مثله عن عوف بن مالك ، وأنس .

قال : وليس فيها شيء على شرط الصحيح ، ولذلك لم يخرج الشيخان شيئاً منهـا . وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة من طريق محمد بن عمرو بن علقمـة ، وليس فيه «كلهـا في النار إلا فرقة واحدة» وعن ابن حزم : أن هذه الزيادة موضوعة ذكر ذلك صاحب (البدر المنير)(١) .

وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام «أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا واحدة»(٢) ولم يزد على ذلك فلم يصفه بصحة ولا حسن ، رغم أنه أطال في تفسير الآية بذكر الأحاديث والآثار المناسبة لها .

وذكـر الإمـام الشوكاني قـول ابن كثير في الحديث ثم قال : قلت : أما زيادة (كونها في النار إلا واحدة) فقد ضعفها جماعة من المحدثين ، بل قال ابن حزم : (إنها موضوعة)(٣) .

---

(١) العواصم والقواصم : لابن الوزير بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ، جـ٣ : ١٧٠ - ١٧٢ والمذكور هنا يرد على الشيخ الألباني الذي ذكر في (الصحيحة) المجلد الأول جـ٣/١٩ ، ٢٠ إن ابن الوزير رد الحديث من جهة متنه لا من جهة سنده ولا أدري من أين له هذا ؟!

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٤٣ ط . عيسى الحلبي .

(٣) فتح القدير للشوكاني في تفسير الآيات ٦٥-٦٧ من سورة المائدة جـ٢ ص٥٩ ط . دار الفكر .

على أن الحديث ، وإن حسنه بعض العلماء كالحافظ ابن حجر ، أو صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية بتعدد طرقه ، لا يدل على أن هذا الافتراق بهذه الصورة وهذا العدد ، أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة ، ويكفي لصدق الحديث أن يوجد هذا في وقت من الأوقات .

فقد توجد بعض هذه الفرق ، ثم يغلب الحق باطلها ، فتنقرض ولا تعود أبدا .

وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة ، فقد هلك بعضها ، ولم يعد له وجود .

ثم إن الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها جزء من أمته صلى الله عليه وسلم، أعني أمة الإجابة المنسوبة إليه ، بدليل قوله : «تفترق أمتي» ومعنى هذا أنها - برغم بدعتها - لم تخرج عن الملة ، ولم تفصل من جسم الأمة المسلمة .

وكونها (في النار) لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار ، بل يدخلونها كما يدخلها عصاة الموحدين .

وقد يشفع لهم شفيع مطاع من الأنبياء أو الملائكة أو آحاد المؤمنين. وقد يكون لهم من الحسنات الماحية أو المحن والمصائب المكفرة ، ما يدرأ عنهم العذاب .

وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه ، ولاسيما إذا كانوا قد بذلوا وسعهم في معرفة الحق ، ولكنهم لم يوفقوا وأخطئوا الطريق ، وقد وضع الله عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

٣ - الاختلاف في الفروع ضرورة ورحمة وسعة

ذلك هو التفرق المذموم والممنوع . أما الاختلاف المقبول والمشروع ، فهو الاختلاف في الفروع وما في معناها .

يجب أن يعلم الذين يريدون جمع الناس على رأي واحد ، في أحكام العبادات والمعاملات ونحوها من فروع الدين : أنهم يريدون ما لا يمكن وقوعه ، ومحاولتهم رفع الخلاف قد لا تثمر إلا توسيع دائرة الخلاف . وهي محاولة تدل على سذاجة بينة ، ذلك أن الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية غير الأساسية ضرورة لابد منها .

وإنما أوجب هذه الضرورة طبيعة الدين ، وطبيعة اللغة ، وطبيعة البشر ، وطبيعة الكون والحياة .

طبيعة الدين :

فأما طبيعة الدين ، فقد أراد الله تعالى ، أن يكون في أحكامه المنصوص والمسكوت عنه ، وأن يكون في المنصوص عليه المحكمات والمتشابهات ، والقطعيات والظنيات ، والصريح والمؤول ، لتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط ، فيما يقبل الاجتهاد والاستنباط ، وتسلم فيما لا يقبل ذلك ، إيماناً بالغيب ، وتصديقاً بالحق ، وبهذا يتحقق الابتلاء الذي بنى الله عليه خلق الإنسان : «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه» (الإنسان : ٢) .

ولو شاء الله لجعل الدين كله وجها واحدا ، وصيغة واحدة ، لا تحتمل خلافا ولا تحتاج إلى اجتهاد ، من حاد عنها قيد شعرة فقد كفر .

ولكنه لم يفعل ذلك ، لتتفق طبيعة الدين مع طبيعة اللغة ، وطبيعة الناس ويوسع الأمر على عباده .

أجل لو شاء الله تعالى أن يتفق المسلمون على كل شيء ، ولا يقع منهم اختلاف في شيء ، ولو كان فرعا من الفروع ، أو أصلا من الأصول غير الضرورية لأنزل كتابه كله نصوصا محكمات قاطعات الدلالة ، لا تختلف فيها

الأفهام ولا تتعدد التفسيرات ، ولكنه جل شأنه أراد أن يكون في كتابه المحكمات - وهن أم الكتاب ومعظمه - وفيه المتشابهات ، وهن أقله ، وفي ذلك ابتلاء من ناحية ، وشحذ للعقول لتجتهد من ناحية أخرى .

يقول تعالى : «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب» (آل عمران : ٧) .

بل إننا نجد - قبل مرحلة الفهم والتفسير - مرحلة القراءة نفسها ، فقد تعددت القراءات في كتاب الله إلى سبع ، بل إلى عشر ، وهي القراءات المتلقاة بالقبول من الأمة ، ولم ير أحد من علماء المسلمين في ذلك أي حرج ، لأنها كلها ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «سمعت رجلا قرأ آية ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ خلافها ، فأخبرته ، فعرفت في وجهه الكراهة ، فقال : كلاكما محسن ، ولا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»(١) .

وروى الجماعة مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضيته مع هشام بن حكيم(٢) .

قال العلامة بن الوزير معلقا على هذا الموضوع :

فهذا الخلاف الذي نهى عنه ، وحذر منه الهلاك ، هو : التعادي . فأما الاختلاف بغير تعادٍ فقد أقرهم عليه ، ألا تراه قال لابن مسعود : «كلاكما محسن» حين أخبره باختلافهما في القراءة ؟ ثم حذرهم من الاختلاف بعد الحكم بإحسانهما في ذلك الاختلاف ، فالاختلاف المحذَّر منه غير الاختلاف المحسَّن به

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير وفي كتاب فضائل القرآن .

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث (   ) .

منها ، فالمحذر منه التباغض والتعادي والتكاذب المؤدي إلى فساد ذات البين ، وضعف الإسلام ، وظهور أعدائه على أهله ، والمحسَّن هو عمل كل أحد بما علم ، مع عدم المعاداة لمخالفه والطعن عليه .

قال : وعلى ذلك درج السلف الصالح من أهل البيت والصحابة والتابعين(١) .

طبيعة اللغة :

وأما طبيعة اللغة ، فلا شك أن مصدر الدين الذي يرجع إليه ويستدل به ويلزم من آمن به ، هو القرآن والسنة ، كما قال تعالى : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» (الأحزاب : ٣٦) .

والقرآن الكريم نصوص قولية لفظية ، وجمهرة السنة كذلك أقوال ونصوص لفظية ، وهذه النصوص القرآنية والنبوية يجري عليها ما يجري على كل نص لغوي عند فهمه وتفسيره ، ذلك أنها جاءت على وفق ما تقتضيه طبيعة اللغة في المفردات والتراكيب ، ففيها اللفظ المشترك الذي يحتمل أكثر من معنى ، وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز ، أو ما يقوله المناطقة : ما يحتمل دلالة المطابقة ، ودلالة التضمن ، ودلالة الالتزام ، أو اللزوم .

فيها ما يدل بالمنطوق ، وما يدل بالمفهوم ، فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، في كل منها ما دلالته قاطعة ، وما دلالته محتملة ، راجحة أو مرجوحة وما يعتبر راجحاً عند زيد يعتبر مرجوحاً عند عمرو .

خذ مثلا آية كآية الطهارة من سورة المائدة ، وهي قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» .

---

(١) انظر : إيثار الحق على الخلق ص٣٧٥ ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

كم في هذه الآية من آراء وأقوال للفقهاء اختلفت باختلاف أفهامهم وتعدد تفسيراتهم ، وجلها يتعلق بأمور لغوية .

هل الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة - مغسولة وممسوحة - فرض أو لا ؟ .

وهل الغاية في قوله «إلى المرفقين» وقوله «إلى الكعبين» داخلة أو لا ؟ .

وهل الباء في قوله «برؤوسكم» تفيد الإلصاق أو التبعيض أو هي زائدة ؟

وما تأويل قراءة «وأرجلِكم» بالجر ؟

وما المراد بقوله تعالى «أو لامستم النساء» أهو لمس البشر للبشرة أم كناية عن الجماع كما يقول ابن عباس ؟

وما المراد بالصعيد في التيمم ؟ أهو التراب أم كل ما كان من جنس الأرض ؟

وما المراد باليد في قوله «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» أهي مجرد الكفين أم ما ذكر في الوضوء ، وهو ما يصل إلى المرفقين ؟

وما معنى قوله «فلم تجدوا» ؟ أيدخل فيه فقدان الماء حكما وإن وجد حقيقة ؟ كما إذا كان محتاجا إليه لشراب أو عجن أو طبخ ؟

إلى غير ذلك من الاحتمالات التي أخذ بكل منها إمام من الأئمة .

طبيعة البشر :

وأما طبيعة البشر ، فقد خلقهم الله مختلفين ، فكل إنسان له شخصيته المستقلة ، وتفكيره المتميز ، وطابعه المتفرد ، يبدو ذلك في مظهره المادي ، كما في مخبره المعنوي ، فكما ينفرد كل إنسان بصورة وجهه ، ونبرة صوته و (بصمة) بنانه ، ينفرد كذلك بلون تفكيره وميوله وذوقه ، ونظرته إلى الأشياء والأشخاص والمواقف والأعمال .

وإن من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء ، وجعلهم نسخا مكررة ، ومحو كل اختلاف بينهم ، فهذا غير ممكن ، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر عليها الناس ، وغير نافع لو أمكن ؛ لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة ، بل من خالف الفطرة عاقبته عقابا معجلا .

ثم إن هذا الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، والتنوع دائما مصدر إثراء وخصوبة ، وهو آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وبديع حكمته : «ومن آياته خلقُ السموات والأرض واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم إن في ذلك لآياتٍ للعالِمين» (سورة الروم : ٢٢) .

وكما جعل الله النخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، وأنواعا من الزرع والثمر ، «يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل» (الرعد : ٤) . كذلك خلق الناس مختلفين ، وإن كانوا كلهم من ذكر وأنثى .

فمن الناس من يميل إلى التشديد ، ومنهم من يميل إلى التيسير ، منهم من يأخذ بظاهر النص ، ومنهم من يأخذ بفحواه وروحه ، منهم من يسأل عن الخير ومنهم يسأل عن الشر مخافة أن يدركه ، منهم ذو الطبيعة المرحة المنبسطة ومنهم ذو الطبيعة الانطوائية المنكمشة .

وهذا الاختلاف في صفات البشر ، واتجاهاتهم النفسية ، يترتب عليه - لا محالة - اختلافهم في الحكم على الأشياء ، والمواقف والأعمال ، يظهر ذلك في مجال الفقه وفي مجال السياسة ، وفي مجالات السلوك اليومي والعادي للناس .

من أبرز الأمثلة لهذا الاختلاف ما عرف واستفاض عن كل من الصحابيين العالمين الجليلين : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم جميعاً .

فقد كان ابن عمر يبعد الأطفال عنه حتى لا يسيل شيء من لعابهم عليه ، تحرزاً مما يشتبه في نجاسته ، وابن عباس يضمهم إليه : ويقول إنما هم رياحين نشمها .

وكان ابن عمر يغسل باطن عينيه في الوضوء ، ويرى أن لمس المرأة ينقض الوضوء ، وابن عباس لا يرى ذلك .

وأزيد على هذا موقفهما من مناسك الحج ، فقد كان ابن عمر يرى التحصيب (النزول بالمحصب) من سنن الحج ، وابن عباس يقول : التحصيب ليس بسنة أي أن نزول الرسول فيه لم يكن مقصودا للتشريع والاتباع .

ومثل ذلك موقفهما من الحجر الأسود والمزاحمة عليه ، فقد روي سعيد بن منصور عن القاسم بن محمد قال : رأيت بن عمر يزاحم على الركن حتى يدمي . (أي يجرح ويسيل منه الدم) .

وفي رواية أنه قيل له في ذلك ، فقال : هوت الافئدة إليه ، فأريد أن يكون فؤادي معهم !

وفي مقابل هذا روي الفاكهي من عدة طرق عن ابن عباس كراهة المزاحمة ، وقال : لا يؤذي ولا يؤذى(١) .

وقبل ابن عمر وابن عباس ، نجد موقف الشيخين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقد كان لكل منهما اتجاهه ، وطريقته في معالجة الأمور ، فأبو بكر يمثل الرفق والرحمة ، وعمر يمثل القوة والشدة ، وهذا ينعكس على رأي كل منهما في المواقف والأحداث .

ومن أظهر الأمثلة لذلك ما كان منهما في شأن أسرى بدر .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلال طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم» (الأنفال : ٦٧ - ٦٩) .

قال الإمام أحمد حدثنا علي بن هاشم عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأساري يوم بدر فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ! فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يأيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس ! » فقام عمر : فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك . فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقال : يارسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال : فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الفتح جـ٣ / ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

وسلم ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل : «لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» . وقد سبق في أول السورة حديث أبن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك(١).

وقال الأعمش عن عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يارسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ! وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، أنت في واد كثير الحطب ، فاضرم الوادي عليهم ناراً ، ثم ألقهم فيه ! قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليهم شيئاً ، ثم قام فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إن الله ليلين قلوب رجال ، حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك ياأبابكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : «فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم» (سورة ابراهيم : ٣٦) . وإن مثلك ياأبابكر كمثل عيسى عليه السلام قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» (سورة المائدة : ١١٨) . وإن مثلك ياعمر كمثل موسى عليه السلام قال : «ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» (سورة يونس : ٨٨) . وأن مثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام قال : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» (سورة نوح : ٢٦) . أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق»(١) .

إن طبائع الناس وأمزجتها تختلف من شخص لآخر ، فتختلف لذلك مواقفها ، حتى بين الأخوين الشقيقين ، وأبرز مثال لذلك من الأنبياء موسى ، وهارون ، عليهما السلام ، ومن الصحابة الحسن والحسين رضي الله عنهما .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ، ص .

طبيعة الكون والحياة :

وأما طبيعة الكون الذي نعيش فيه - أو بتعبير أدق : في جزء صغير جداً منه - فقد خلقه ربه الأعلى سبحانه مختلف الأنواع والصور والألوان ، اقرأ قوله تعالى : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨) .

ولكن هذا الاختلاف الذي نبه عليه القرآن ، ليس اختلاف تضارب وتناقض ، بل هو - كما نؤكد دائماً - اختلاف تنوع وتلون ، ولهذا تكررت في القرآن كلمة «مختلف ألوانه» في أكثر من سورة ، وأكثر من مناسبة .

بل نجد القرآن الكريم ينفي بعبارة صريحة ما ينبىء عن التضارب أو التعارض في الكون ، وذلك في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (الملك : ٣) .

وكذلك طبيعة الحياة ، فهي أيضاً تختلف وتتغير ، بحسب مؤثرات متعددة منها المكان والزمان .

الاختلاف رحمة :

والاختلاف - مع كونه ضرورة - هو كذلك رحمة بالأمة ، وتوسعة عليها - وقد روي في ذلك حديث اشتهر على الألسنة لا يعرف له سند ، وإن كنت أرى أنه صحيح المعنى ، وهو ما ذكره السيوطي في الجامع الصغير عنه صلى الله عليه وسلم : «اختلاف أمتي رحمة»(١) .

---

(١) قال العلامة المناوي في تخريجه في كتابه (فيض القدير ١/٢١٢) : قال السبكي وليس بمعروف عند المحدثين ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع . قال السيوطي : (ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا) وأسنده في المدخل وكذا الديلمي في مسند الفردوس وكلاهما من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ « اختلاف أصحابي رحمة » واختلاف الصحابة في حكم اختلاف الأمة كما مر لكن هذا الحديث قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف وقال ولده المحقق أبو زرعه : رواه أيضا آدم بن أبي أياس في كتاب العلم والحلم بلفظ اختلاف أصحابي لأمتي رحمة ، وهو مرسل ضعيف ، وفي طبقات ابن سعد عن القاسم بن محمد نحوه) .

ويؤيد معنى هذا الحديث ما رواه الدارقطني وحسنه النووي في الأربعين : «إن الله تعالى حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ، رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها» .

والأشياء المسكوت عنها تكون عادة من أسباب الاختلاف ، لأنها تكون منطقة فراغ تشريعي ، يحاول كل فقيه أن يملأها وفقا لأصوله ، واتجاه مدرسته ، فواحد يتجه إلى القياس ، وآخر إلى الاستحسان ، وثالث إلى الاستطلاح ، ورابع إلى العرف ، وغيره إلى البراءة الأصلية . . وهكذا .

المهم أن الحديث يشير إلى أن السكوت عن النص على حكم معين في هذه المنطقة كان مقصودا ، فلا يضل ربي ولا ينسى ، وكان الهدف هو الرحمة والتيسير على الأمة .

وإذا كان في هذا الحديث بعض الضعف ، من ناحية إسناده ، فهناك حديث آخر في معناه يشهد له ، وهو ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً(١) ، ثم تلا : وما كان ربك نسيا» (الآية : ٦٤ من سورة مريم) .

فالعفو هنا في معنى الرحمة في الحديث السابق ، وكلها تدل على قصد التوسعة والتيسير على هذه الأمة . وذلك يتمثل في أمرين :-

١ - ترك النص على بعض الأحكام ، أو (السكوت عنها) بتعبير الحديث الشريف وترك ذلك للعقول المسلمة لتجتهد في فهمه في ضوء المنصوص على حكمه .

٢ - صياغة ما نص عليه من الأحكام - في غالب الأمر - صياغة مرنة بحيث تتسع لتعدد الأفهام ، وتنوع الأراء والاجتهادات .

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢ / ٢٧٥) واورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) وقال : رواه البزار والطبراني في الكبير ، وإسناده حسن ورجاله موثقون (١ / ١٧١) .

ولهذا اجتهد الصحابة واختلفوا في أمور جزئية كثيرة ، ولم يضيقوا ذرعا بذلك .

وجود الخلاف في خير قرون الأمة :

لقد كان الخلاف موجوداً في عصر الأئمة المتبوعين الكبار : أبي حنيفة ومالك والشافعي ، وأحمد والثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم ، ولم يروا فيه شرا ، ولم يحاول أحد منهم أن يحمل الآخرين على رأيه بالعنف أو يتهمهم في علمهم أو دينهم من أجل مخالفتهم له .

بل قيل للإمام أحمد ، وكان يرى نقض الوضوء من الرعاف وسيلان الدم الكثير : هل تصلي خلف من خرج منه الدم ولم يتوضأ ؟ فأجاب مستنكراً : كيف لا أصلي خلف مالك ، وسعيد بن المسيب ؟! (وكان لا يريان النقض بذلك) .

وقبل الإمام أحمد سجل للإمام مالك موقفه التاريخي بعد ما ألف كتابه الشهير (الموطأ) بتكليف من الخليفة العباسي ، أبي جعفر المنصور ، فقد أراد أن يحمل الناس على ما فيه من آراء وأحكام بسلطان الدولة ، وبعبارةة أخرى : أراد أن يجعل منه قانونا عاما لدولة الخلافة ، يلتزم به الكافة وتلغى الآراء والاجتهادات الأخرى، قالوا: «لما حج المنصور قال لمالك : قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنفتها فتنسخ ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقال : ياأمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . ويحكى نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد ، وأنه شاور مالكا في أن يعلق الموطأ في الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه فقال : لا تفعل فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل سنة مضت . قال : وفقك الله ياأبا عبد الله ! حكاه السيوطي(١) .

---

(١) انظر : حجة الله البالغة جـ١ / ١٤٥ .

بل كان الخلاف موجوداً في عصر شيوخ الأئمة وشيوخ شيوخهم من التابعين الكبار والصغار من تلاميذ الصحابة رضي الله عنهم .

بل كان الخلاف موجودا في عصر الصحابة ، نظرا لاختلاف أفهامهم وتفسيرهم للنصوص ، أو لاتجاهاتهم النفسية في التشديد والتخفيف ، كما ذكرنا ما كان بين ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم من اختلاف في الاتجاه .

بل أقول : أن الاختلاف وجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقره ولم ينكره كما في قضية صلاة العصر ، في بني قريظة ، وهي مشهورة ، وفي غيرها من القضايا .

يقول حكيم الإسلام الدهلوي في (الحجة البالغة) :

أن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق ، وتكبيرات العيدين ، ونكاح المحرم ، وتشهد ابن عباس وابن مسعود ، والإخفاء بالبسملة وبآمين، والإشفاع والإيتار في الإقامة ونحو ذلك، إنما هو في ترجيح أحد القولين ، وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية ، وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين ، ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءة، وقد عللوا كثيرا من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون ، وأنهم جميعا على الهدى .

ولذلك لم يزل العلماء يجوزون فتاوي المفتين في المسائل الاجتهادية ويسلمون قضاء القضاة ، ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم ، ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يضجعون القول ويبينون الخلاف ، يقول أحدهم : هذا أحوط ، وهذا هو المختار ، وهذا أحب إلي ، ويقول : ما بلغنا إلا ذلك ، وهذا كثير في المبسوط ، وآثار محمد رحمه الله . وكلام الشافعي رحمه الله .

ثم خلف من بعدهم خلف اختصروا كلام القوم ، فقووا الخلاف ، وثبتوا على مختار أئمتهم .

والذي روي عن السلف من تأكيد الأخذ بمذهب أصحابهم وأن لا يخرج منها بحال فإن ذلك إما لأمر جبلي ، فإن كل إنسان يحب ما هو مختار أصحابه وقومه ، حتى في الزي والطعام ، أو لصولة ناشئة من ملاحظة الدليل ، أو لنحو ذلك من الأسباب ، فظنه البعض تعصبا دينيا حاشاهم من ذلك .

وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسملة ، ومنهم من لا يقرؤها ، ومنهم من يجهر بها ، ومنهم من لا يجهر بها .

وكان منهم من يقنت في الفجر ، ومنهم من لا يقنت في الفجر ، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء ، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك . ومنهم من يتوضأ من مس الذكر ، ومس النساء بشهوة ، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك .

ومنهم من يتوضأ مما مسته النار ، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل ، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك .

ومع هذا فكان بعضهم يصلي خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة أو أصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية ، وغيرهم ، وإن كانوا لا يقرءون البسملة لا سرا ولا جهرا .

وصلى الرشيد إماما ، وقد احتجم ، فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ، ولم يعد ، وكان أفتاه الإمام مالك بأنه لا وضوء عليه .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ تصلي خلفه ؟ فقال : كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب ؟ .

وروي أن أبا يوسف ومحمدا كانا يكبران في العيدين تكبير ابن عباس ، لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جده .

وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريبا من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله ، فلم يقنت تأدبا معه . وقال أيضا : ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق .

وقال مالك رحمه الله للمنصور أو هارون الرشيد ما ذكرنا عنه سابقا .

وفي البزازية عن الإمام الثاني - وهو أبو يوسف رحمه الله - أنه صلى يوم

الجمعة مغتسلا من الحمام وصلى بالناس وتفرقوا ، ثم أخبر بوجود فأرة ميتة في بئر الحمام ، فقال : إذا نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة : «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» أهـ .

وسئل الإمام الخجندي رحمه الله عن رجل شافعي المذهب ترك صلاة سنة أو سنتين ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، كيف يجب عليه القضاء ، أيقضيها على مذهب الشافعي أو على مذهب أبي حنيفة ؟ فقال : على أي المذهبين قضى بعد أن يعتقد جوازها جاز . انتهى .

وفي جامع الفتاوي أنه قال : إن قال حنفي : إن تزوجت فلانة فهي طالق ثلاثا ، ثم استفتى شافعيا فأجاب : أنها لا تطلق ، ويمينه باطل فلا بأس بالاقتداء بالشافعي في هذه المسألة ، لأن كثيراً من الصحابة في جانبه .

قال محمد رحمه الله في أماليه : لو أن فقيها قال لأمرأته : أنت طالق ألبتة وهو ممن يراها ثلاثة ، ثم قضى عليه قاض بأنها رجعية ، وسعه المقام معها ، وكذا كل فصل مما يختلف فيه الفقهاء من تحريم أو تحليل أو إعتاق أو أخذ مال أو غيره ، ينبغي للفقيه المقضي عليه الأخذ بقضاء القاضي ، ويدع رأيه ، ويلزم نفسه ما ألزم القاضي ، ويأخذ ما أعطاه..

قال محمد رحمه الله : وكذلك رجل لا علم له ، ابتلي ببلية فسأل عنها الفقهاء فأفتوه فيها بحلال أو بحرام ، وقضى عليه قاضي المسلمين بخلاف ذلك ، وهي مما يختلف فيه الفقهاء ، فينبغي له أن يأخذ بقضاء القاضي ويدع ماأفتاه الفقهاء ، انتهى(1) .

بل وجد الخلاف بين الملائكة والأنبياء :

وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن الملائكة قد اختلفوا بل اختصموا بينهم وذلك بقوله تعالى : «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون» (سورة ص : ٦٩) .

---

(1) حجة الله البالغة جـ١ ١٥٨ - ١٦٠ .

وأن الأنبياء اختلفوا فيما بينهم أيضاً .

اختلف موسى وأخوه هارون ، عليهما السلام ، إلى حد أن أخذ موسى بلحية أخيه ، ولامه أشد اللوم بعد عبادة بني اسرائيل العجل السامري «قال : ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن ، أفعصيت أمري ؟ قال : ياابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي» (الاعراف : ١٥٠) .

واختلف موسى والخضر عليهما السلام في مواقف ثلاثة انتهت بافتراقهما «قال : هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا» وهو ما فصلته سورة الكهف .

واختلف داود وابنه سليمان عليهما السلام في حكم الغنم إذ نفشت في زرع القوم ، وأشار القرآن إلى أن الصواب كان مع الإبن ، ولكنه أثنى على الاثنين جميعاً فقال : «ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما» (سورة الأنبياء : ٧٩) .

وصح في الحديث اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في مصير الرجل الذي قتل مائة نفس ، ثم خرج تائبا إلى القرية الصالحة ومات في الطريق ، أيحكم له بحكم القرية الظالمة التي عاش عمره فيها وقتل منها من قتل ، أم يحكم له بحكم القرية الخيرة التي كانت وجهته إليها ، وبعبارة أخرى : أيحكم له بعمله أم بنيته ؟ بالأول حكم ملائكة العذاب ، وبالثاني حكم ملائكة الرحمة ، وقد بعث الله ملكا يحكم بينهما ، فحكم لملائكة الرحمة .

وثبت في الحديث كذلك محاجة آدم وموسى حول سبب الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ، والاستقرار فيها ، وهل كان أكل أدم من الشجرة سبب ذلك أو لا ؟ وأن أدم حج موسى⁽¹⁾ .

وثبت في الحديث أيضاً اختلاف داود وسليمان في شأن المرأتين اللتين اختصمتا في طفل تدعي كل منهما أنه ابنها ، وهو في الصحيحين من حديث أبي

---

(١) متفق عليه .

هريرة : كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن أحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه ، فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينهما ! فقالت الصغرى : لا تفعل ، يرحمك الله ! هو ابنها . فقضى به للصغرى (١) .

وإذا كان الخلاف والاختصام قد وقع بين أكرم الخلق على الله من الملائكة الكـرام والأنبياء العظام ، لاختلاف زوايا الرؤية ، ووجهات النظر ، واتساع العلم وضيقه ، فكيف نطمع أن نمحو الخلاف بين غيرهم ممن لا عصمة لهم ، وليس فيهم ملك ولا نبي مكرم ؟

ورحم الله من قال :

تسل عن الوفاق ، فربنا قد   حكى بين الملائكة الخصاما !
كذا الخضر المكرم ، والوجيه المـ   ـكلّم (٢) ، إذ ألم به لماما
تكدّر صفو جمعهما مرارا   وعجل صاحب السر الصراما
ففارقه الكليم كليم قلب   وقد ثنى على الخضر الملاما
فدل على اتساع الأمر فيما الكـ   ـرام فيه خالفت الكراما
وما سبب الخلاف سوى اتساع المـ   ـعلوم هناك نقصا أو تماما (٣)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) متفق عليه ، كما في اللؤلؤ والمرجان ، حديث (١١٢١) وقد رواه البخاري في كتاب الأنبياء ، ومسلم في كتاب الأقضية .

(٢) يعني موسى الذي قال الله تعالى فيه : «وكان عند الله وجيها» (الاحزاب : ٦٩) .

(٣) من شعـر العـلامة ابن الوزير في كتابه (إيثار الحق على الخلق) ص١٩٩ ، ط. دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .